تفسيرتفهيم القرآن للشيخ أبي الأعلى المودودي في الميزان في ضوء دراسة تفسيرسورتی النساء والمائدة

عارف متين*

بشيراحمد درس**

Abstract

Syed Abul A'ala Maududi (1903-1979), was a major 20th century Muslim thinker, highly distinguished scholar, and revivalist leader. He wrote over 120 books. Maududi's pen was simultaneously forceful, prolific and versatile. The range of subjects he covered is unusually wide. Disciplines such as *Tafsir*, *Hadith*, law, philosophy, politics, history and culture, all have received the due share of his attention. However, his magnum opus is monumental *tafsir* of the *Qur'ān* in Urdu namely *Tafhim al-Qur'ān*, a work that took 30 years to complete. He intended to give the *Qur'ān* a practical and contemporary interpretation. It became widely read throughout the world and has been translated into several languages of the world. One of its main characteristics lies in presenting the meaning and message of the *Qur'ān* in a language and style that penetrates the hearts and minds of the men and women of today and shows the relevance of the *Qur'ān* to their everyday problems, both on the individual and societal levels. He translated the *Qur'ān* in direct and forceful modern Urdu idiom. He presented the *Qur'ān* as a book of guidance for whole humanity, as well as a guidebook for the Islamic movements to implement and enforce that guidance in human life. He attempted to explain the verses of the *Qur'ān* in the context of its total message. This *Tafsir* has made a far-reaching impact on contemporary Islamic thinking in the Subcontinent, and through its translations, even abroad. The following article is an effort to illuminate some characteristics of his *Tafsir* as well as some issues and concerns over it, which can be helpful in setting the new paradigms of *Tafsir*.

Keywords: Syed Abul A'ala Maududi, *Tafhim al-Qur'ān*, Tafsir, Characteristics of *Tafsi*

---

*بوستن اسلامک سنتر، یوکے۔

**محاضر، جامعه مهران، شهيد ذولفقار علي بهتو كيمبس، خيرپور-

المدخل:

لقد عاش السيد أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩)، الذي يعتبره كثيرون من مجددي الإسلام في القرن العشرين، في عصرالذي قد كتب فيه عدة تفاسير في اللغة الأردية إلا أنه كانت هناك فجوة ما كانت تسدها وهي حاجة عامة مثقفي مجتمع شبه القارة للوصول إلى تعليمات القرآن وعطشهم إلى معرفة الهدف الحقيقي لهذا الكتاب العزيز. وبالإضافة إلى ذلك، أنهم كانوا يقعون فريسة عواصف الشبهات المثارة حول تعليمات الإسلام الثابتة لتشويه صورة الإسلام من قبل المستشرقين والمشككين والمتجددين. وسد هذه الضرورة هو من إحدى الأمور التي يميزه عن التفاسير الأخرى في اللغة الأردية. وكما يميزه اهتمام المؤلف بصفة خاصة بالقضاء على أسطورة فصل الدين عن الدولة وفكرة اقتصار الدين على أداء الطقوس الضالة، وذلك ببيان أهمية الاحتكام بما أنزل الله من ناحية وبإبراز أوجه النظام الإسلامي المختلفة من ناحية أخرى، فكان بهذا أن تمكن الإمام من إعادة ثقة الشباب المثقفين في صلاحية الإسلام لقيادة الركب البشري وحل معضلات الحياة في ذلك العصر. ثم هذا التفسير غير مقتصر بجانب خاص من جوانب التفسير، بل يجد القارئ أنه يشمل جميع ألوان التفسير مثل التفسير الاجتماعي والأدبي والفقهي والموضوعي.

ولاشك إن عملية عرض الإسلام ومحاسنه وتعليماته خلال تفسير القرآن العظيم عملية دقيقة وصعبة بقدر ما هي واجبة وضرورية. فمن الطبيعي أن يتسم كل من قام بهذه العملية بمزايا عديدة وأن يوجه إليه من انتقادات كذلك. قسمت هذا البحث إلى مبحثين. وأذكر مميزات تفسير سورتي النساء والمائدة في المبحث الأول، ومآخذ تفسير سورتي النساء والمائدة في المبحث الثاني.

المبحث الأول

مميزات تفسير سورتي النساء والمائدة:

وسأبرز في هذا المبحث بعض خصائص تفسيره التي يمتاز بها عن الآخرين من المفسرين، لا سيما المعاصرين مع بيان جوانب منهجه وأسلوبه الفريد التي ركز عليها خلال تفسيره في هاتين السورتين. وذلك بإيجاز وإختصار.

الخصيصة الأولى : إحياء التصور الصحيح للدين:

ومما لا شك أن دين الإسلام دين كامل وتتسع دائرته إلى كل جانب من جوانب الحياة الفردية والاجتماعية.

وتدل عليه أسوة النبي وخلفائه الراشدين. ولكن مع كر الأيام ومر الليالي بدأ ذلك التصور الحقيقي يختفي من عيون الناس، فبعد سيطرة الاستعمار الأوربي الغاشم على معظم البلاد الإسلامية نسي المسلمون أو تناسوا عامتهم وخاصتهم ذلك التصور الإسلامي الصحيح. وحسبوا أن الدين هو إيمان ببعض الإعتقادات وأداء بعض الطقوس فحسب، ولا علاقة له بالجوانب الأخرى للحياة من المعاملات والتجارة والسياسة. ولذلك شرع المؤلف بإحياء التصور الصحيح للإسلام الذي تتسع دائرته في كل ناحية من نواحي الحياة الفردية والاجتماعية.

فنراه يقسر قوله تعالى: ''الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا'' المراد بـ 'إكمال الدّين' هو إنّ الله تعالى قد جعل هذا الدّين نظام الحياة الاجتماعية المتكامل و نظامًا مستديمًا لتقويم النظر والاعتقاد وإصلاح السلوك والعمل محتويًا كل التوجيهات اللّازمة والأجوبة الهامّة عن الأسئلة الواردة في جملة حياة الإنسان، إمّا بشرح المبادئ الأساسية والمعتقدات الثابتة التي يمكن أن تستنتج منها تعليمات بالتفصيل أو بتوضيح مثل هذه التوجيهات بمنتهى الوضوح لكي لا يحتاج أحد مطلقًا إلى مصدر غريب غيره للبحث عن التوجيه والإرشاد"-[1]

وصنف عدة من الكتب القيمة أيضا لتحقيق ذلك الهدف، ومنها:

"مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة"، و" نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور"، و"كيف تقام الحكومة الإسلامية"، و" الإسلام ومعضلات الاقتصاد "، و"الخلافة والملك"، و"نظرية الإسلام السياسية" وغيرها.

ويقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي عن عمله الجليل هذا : " قد عرض الإسلام ونظام حياته وأوضاع حضارته وحكمه، وصياغته للمجتمع والحياة، وقيادته للركب البشري والمسيرة الإنسانية في أسلوب علمي رصين في لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف ومستوى العصر العلمي "[2]

الخصيصة الثانية : إبراز التصور الصحيح للتوحيد ومتطلباته:

ومن أهم أعماله الجليلة إحياء التصور الصحيح للتوحيد. وكما من المعلوم بأن عقيدة التوحيد هي أصل الدين وإذا فسدت هذه العقيدة فسد الدين كله.

ومن متطلبات التوحيد الأساسية أن يكون الحكم لله، ولكن بدأ المسلمون يرون أن التوحيد يشمل توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية فحسب، وأما توحيد الحاكمية فتجاهل المسلمون كونها من أنواع التوحيد، مع

[1] انظر سورة المائدة الهامش رقم: ١٦

[2] مجلة المجتمع الكويتية, العدد،٤٥٩، ٢٤

أن عدداً غير قليل من آيات القرآن تدل على ذلك، ومنها قوله سبحانه:''وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ''[3] وقوله تعالى:''إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ''[4] وقوله سبحانه: " إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ[5] وغيرها كثير من الآيات الكريمة. وكان لذلك أن كثير من المسلمين الذين كانوا يعتقدون في عقيدة التوحيد لم تمنعهم هذه العقيدة من الوقوع في الشرك في الحاكمية.... حتى العلماء والمشايخ الذين كانوا يتمسكون بعقيدة التوحيد بالشدة، وكانوا ينكرون الشرك في الربوبية والألوهية لم يهمهم الشرك في الحاكمية قط، حتى إن كثيراً منهم كانوا راضين عن الحكومات غير الإسلامية ولم يجتهدوا لقيام الحكومات الإسلامية التي تتمكن من القضاء على الشرك في الحاكمية. ولكن الشيخ المودودي قد وفقه الله أن يثبت بالأدلة من القرآن والحديث بأن عقيدة التوحيد لن تكمل إلا إذا اشتملت على توحيد الحاكمية. فيقول عند تفسيره لقوله تعالى:" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا".

إنّ المراد بـ "الطاغوت" الحاكم الذي يحكم بمعايير قانون دون القانون الإلهي، أو نظام المحكمة الذي لا يكون مطيعاً للسلطة المطلقة لله ولا يقبل كتاب الله كمرجع نهائي. فصرّحت الآية بكل الصراحة أنّ التحاكم إلي محكمة اتخذت صفة"الطاغوت" ينافي الإيمان. إذ الإيمان بالله وكتابه يقتضي رفض شرعية مثل هذه المحكمة رفضاً تاماً. فبموجب تعليمات القرآن الكريم يستلزم الإيمان بالله كفراً بالطاغوت بالضّرورة. لأن الاستسلام لله وفي نفس الوقت الإذعان للطاغوت عين النفاق يقيناً."[6]

وألف و" المصطلحات الأربعة في القرآن " و" مبادئ الإسلام " و" الخطب " و" الحضارة الإسلامية – أسسها ومبادئها " وغيرها من الكتب، حتى جعله عقيدة لجماعته كما ذكر في دستور الجماعة الإسلامية: " أن لا يسلم لغير الله بأنه ملك أو مالك الملك، أو مصدر السلطة العليا، ولا يعترف لأحد غير الله بحقه في الأمر والنهي بناء على سلطته الذاتية وكذلك لا يدين بغير الله شارعاً ومقنناً مستقلاً بذاته، ويرفض كل طاعة لا تتبع طاعة الله ولا تلتزم بأحكام الله، فالله وحده هو مالك حقيقي لملكه وخالق لمخلوقه وليس لغيره أبداً حق الملكية والحاكمية بصفة مطلقة "[7].

[3] المائدة:۴۴

[4] يوسف:۴۰

[5] الأنعام:۵۷

[6] النساء:۶۰، الهامش رقم:۹۱

[7] دستور الجماعة الإسلامية بباكستان، المادة الثالثة(۵)،۳

الخصيصة الثالثة : الاهتمام بالخرائط لإيضاح حادث الذي ورد ذكره في القرآن الكريم:

من خصائص تفسير تفهيم القرآن اهتمام المؤلف بالخرائط. فيمتاز المؤلف بهذه الخصيصة عن الآخرين من المفسرين. فيبين خلال تفسيره كل من هذه الخرائط والصور مع بيان موقعها الجغرافي وموجزها التاريخي مع ذكر علاقتها مع الحادث الذي ورد فيه ذكرها. ولأهميتها البالغة زار الأماكن الواردة في القرآن الكريم التي تقع في المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية وفلسطين وسوريا وجمهورية مصر العربية فكانت رحلته هذه من ٣ نوفمبر١٩٥٩ إلى ٤ فبراير١٩٦٠[8]. وانظر سورة المائدة الهامش رقم ۴۶ وراجع الخريطة وشرحها بعنوان تيه بني إسرائيل في شبه جزيرة سيناء.

الخصيصة الرابعة : الاعتناء بأسلوب أدبي سهل ميسور حيث يمكن أن يستفيد عامة الناس من هدي القرآن الكريم:

ويذكر في ديباجة التفسير أن هدف تأليفه على الرغم من كثرة ترجمات القرآن وتفاسيره هو إرواء ظمأ شريحة معينة من المجتمع وهم عامة المثقفين الذين ليست لديهم خلفية اللغة العربية وليس بإمكانهم فهم الدين والقرآن بالرجوع إلى مصادرهما الأصلية، ولم يستهدف فيه العلماء والمتخصصين فقال: إن الهدف الذي سعيت ورائه في عملي هذا هو أن يظل القارئ العادي يعي مفهوم القرآن وغرضه بوضوح تام أثناء قراءته لهذا الكتاب، وأن يتأثر به نفس التأثر الذي يريد القرآن إحداثه. وكذلك أن تُزال التعقيدات من كل موضع يمكن أن تواجهه فيه أثناء المطالعة، وأن يحصل على أجوبة الأسئلة التي تنشأ في ذهنه فى أيّ موضع في أوانها. [9]

ولقد أوفى هذا الهدف قدر ما أمكن له. فيفسر الآيات بأسلوب أدبي سهل خلاب. ونراه يبين معنى الإحرام وما يتعلق به والميقات: "الإحرام" اسم مَلبس بسيط يُرتدى في سفر لزيارة الكعبة. وتمّ تعيين مكان خاصّ من كل جهة الكعبة على مسافة عدّة أميال. ولا يجوز لزائر الكعبة أن يجتاز هذا المكان إلا وأن يرتدي لباس الإحرام بدلاً مِن لباسه العادي. ويشمل الإحرام على إزار ورداء. ويسمّى هذا اللباس إحرام لأنّه يَلزم بلبسه حرمة بعض من الأمور على المحرم الذي كان حلالاً له في حالة من الحالات غير الإحرام. فمثلاً يحرم عليه حلق الرأس، واستعمال العطور والمواد الأخرى من أدوات الزينة، وإشباع الرغبات الجنسية، وقتل الحيوانات وصيدها وتدليل على الصيد.

[8] سفرنامه ارض القرآن لعاصم الحداد، ٢٤٨،٢٩

[9] تفهيم القرآن، ١:٧

الخصيصة الخامسة: الاهتمام بدحض الشبهات المثارة حول التعليمات الإسلامية الثابتة وإيراد الأسئلة وأجوبتها:

ويذكر في خاتمة تفسيره أن كل ما سعى إليه هو أن يفهم عامة المثقفين القرآن كما فهمه هو بنفسه، وأن يُبيّن لهم مفهومه ومراده الحقيقي بوضوح تام بحيث يمكنهم الوصول بذلك إلى مفهوم القرآن، وأن يدفع جميع الشكوك والشبهات وأن يُجيب عن الأسئلة التي تنشأ أثناء قراءة القرآن أو قراءة ترجماته فحسب، وأن يبيّن الأمور التي ذكرها القرآن المجيد بإيجاز واختصار.[10]

وعلى ذلك أمثلة كثيرة نذكر بعضا منها:

يقول عند تفسير قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .[11]

بعدما ذكر أنّ تقسيم المأكولات والمشروبات إلى جائز وغير جائز إنّما مستند على أساس فوائدها ومفاسدها الأخلاقية خلافًا على خواصّها الطّبّية: " ولعلّ سائل يسأل: أنه لماذا لم يُبيّن الله تعالى مثل هذه الاعتبارات المغمورة ولم يقم بتوعية العلل المستورة في منع الأشياء المختلفة لكي ننال البصيرة التّامة؟ فنقول ردّاً على هذا السؤال، أنه من المحال أن نُدركها تمامًا. وإنّ من الأسئلة التي نواجهها على سبيل المثال: ما هي تأثيرات مفسدة التي تترتب على أخلاقنا بأكل كل من الدمّ أو لحم الخنزير والميتة؟ وإلى أيّ مدى هذا الفساد يؤثّر على أخلاقنا؟ وما هو الطريق الذي يؤثّر به بعض الأشياء على أخلاقنا؟ وهي مسألة نحن عاجزون عن التحقيق فيها بما لا نمتلك موازين ومقاييس التي يمكن أن نقيس بها الصّفات الأخلاقيّة للأشياء المختلفة. ولذلك لو كانت هذه الآثار السيئة نجدها، على سبيل الافتراض، مذكورةً لكان الشّاك واقفًا في نفس موقف الشّكّ الذي هو واقف فيه الآن، لما ليس لديه شيء بما يقيس ويختبر صلابة البيانات على مثل هذه الأسئلة؟ ولأجل هذا قد جعل الله مناط التزام الحدود للحلال والحرام ومعوله ثقة الإيمان بدلاً من قوّة ملاحظة الإنسان وسعة تعقّله. فمن اقتنع بأنّ القرآن كتاب الله تعالى ومحمّد صلى الله عليه وسلم رسوله وإنّ الله تعالى عليم بما يعمل الإنسان

[10] تفهيم القرآن، خاتمة،٦: ٥٧٥

[11] المائدة:٣

وحكيم فيما يحكم به. فبالضّرورة يُلزم نفسه على التزام بكلّ ما هو مأمور به بغضّ النّظر عن إدراك الحكمة المخفيّة والمصلحة المضمرة. وأما من يعوز هذا الإيمان الأساسي ويفتقر إلى هذه العقيدة المبدئيّة فلا قِبل له ولا سبيل له إلّا أن يتفادى من تلك الآثام التي قد أحاط علم الإنسان بمفاسدها ويتحاشى فقط عمّا اتّضحت أضرارها الباهظة جليًّا. وسيبقى فريسةَ مضرات وضحيةَ مفاسد التي لم يسع دركه وضلعه ولكن هي، على كل حال، في حقيقة الأمر ضارّة جوهريّاً.

وانظر لمزيد من الأمثلة سورة النساء الهامش رقم٥،٤٦،٨٩،١٦١، وسورة المائدة الهامش رقم٨٠،٨١،١٢٨.

الخصيصة السادسة : ديباجات السور:

من مميزات المؤلف كذلك أنه كتب ديباجة في مقدمة تفسيره لكل سورة لكي يوضح خلفية السورة التاريخية وزمن نزولها والظروف والأوضاع التي تمر بها الحركة الإسلامية وتكلم عن حاجاتها والمشاكل التي تواجهها. ويبين المؤلف نفسه أهميتها في ديباجة تفسيره قائلا : فإن كل سورة من القرآن المجيد كانت أصلاً خطاباً ينزل في واقعة خاصة لمرحلة ما لدعوة الإسلام[12]، وتكون لها خلفية خاصة، وتتقاضاها ظروف خاصة، وكانت تنزل للإيفاء ببعض المستلزمات آنذاك. فعلاقة سور القرآن عميقة بخلفياتها تلك وبأسباب نزولها تلك لدرجة أنه إذا عُرِضَت أمام المرء مجرد كلمات الترجمة منفصلة عن ذلك فلن يفهم أموراً كثيرة قطعاً، وسيفهم بعضها معكوسة، وقد لا يلمّ أبداً بغرض القرآن الكامل. ولإبعاد هذا الإشكال في نص القرآن العربي يُضطر للاستعانة بالتفسير، لأنه لا يمكن إضافة شيء على أصل القرآن. ولكن في أي لغة أخرى يمكننا التحرر والاستمرار في ربط الكلام إلى حد ما بخلفيته وبحالات نزوله أثناء ترجمانية القرآن، لكي يؤدي المعنى للقارئ بصورة أتم".[13] وتشمل كل ديباجة على أربعة عناوين أو بعضها وهي التسمية وزمن النزول والخلفية التاريخية والموضوع والمباحث.

الخصيصة السابعة: عدم الخوض في المباحث الجانبية:

من المعلوم أن بعض المفسرين يخوضون في المباحث الجانبية التي ليست لها علاقة مباشرة بتفسير الآيات القرآنية فالمؤلف لم يهتم بهذه المباحث الجانبية، إلا أنه يعتني ببيان الدروس التي ينبغي للمسلم أن يتلقى منها العبر، فيقول عن منهجه هذا:

---

[12] ليس بالضرورة أن تكون السورة بأكملها خطاب واحد ولعل المؤلف قالها تغليباً.

[13] تفهيم القرآن،١٠:١

"وإنني حاولت خلال تفسيري للقرآن الكريم بأن لا أعتني بالمباحث التي لا علاقة مباشرة لها بالتفسير أو التي تلفت نظر القارئ إلى الأمور التي ليست لها علاقة بفهم القرآن الكريم "[14]. ولأمثلة هذه الميزة راجع سورة النساء الهمش رقم 1، وسورة المائدة الهامش رقم١٢٩.

الخصيصة الثامنة: بعض المزايا لأسلوبه في تفسير آيات الأحكام :

١: يهتم المؤلف بالمقارنة بين آراء الفقهاء الكبار بطريقتين، أولاهما : أنه يكتفي بنقل آرائهم مع الأدلة التي جاءوا بها دون ترجيح، وثانيتهما : يرجح بعض من تلك الآراء الفقهية، وذلك بالأدلة من القرآن والسنة أو البراهين العقلية.

٢: المراجع التي يعتمد عليها المؤلف لاستنباط الأحكام هي الروايات الواردة في الموضوع أو النظائر القانونية في عهد النبوة أو الخلفاء الراشدين أو آراء الفقهاء.

٣: اجتنابه التعصب المذهبي في الحكم بين الآراء الفقهية، فنرى أن كونه حنفياً في مذهبه لا يجعله متعصباً في تأييده، بل في الحقيقة هو يؤيد مذهباً أو ينتقده في ضوء الأدلة من الكتاب والسنة و البراهين العقلية.

٤: أسلوبه في بيان الأحكام جذاب وسهل، وهذا ما يسهل لطلاب القانون والشريعة أن يستفيدوا منها. وراجع للأمثلة سورة النساء الهامش رقم ١٠،٢٦،من ٣٣إلى ٤٦،٦٩،١٣٢،١٣٤، ٧٠، وسورة المائدة، ١٩،٢٢،٦٠،١٠٩.

الخصيصة التاسعة: إبراز موقف الإسلام من النظريات الغربية والفلسفات الجاهلية المعاصرة خلال تفسيره:

اهتم بصفة خاصة بإبراز موقف الإسلام من النظريات الجاهلية والشكوك والشبهات التي جاءت بها الفلسفات الغربية والأفكار المادية خلال تفسيره للقرآن وذلك خلال تفسيره للآيات المتعلقة بالعقائد والقيم الأخلاقية والجوانب الاجتماعية، وهذا الذي جعل بعض الكتاب يدعوه" متكلم الإسلام" كما قال أبو الحسن الندوي: وسيكون من الإجحاف الكبير إذا لم نوف حقه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هذه ـــــالتي ظهرت فيما بعد في صورة كتب ورسائل ـــــومؤلفاته ورسائله المستقلة من دور رائع في اعادة الثقة إلى الطبقة الذكية، المثقفة بالثقافة الغربية، بالإسلام وبقيمه وتصوراته، وفي تخليصها من "مركب النقص" و "نفسية الهزيمة الداخلية" حيال الإسلام وتعاليمه، مما جعل بعض

[14] ديباجة تفهيم القرآن،١: ١١

الكتاب يدعوه "متكلم الإسلام".[15] ففصّل المؤلف قوله بأسلوب خلاب في هذا الباب خلال تفسيره لقوله تعالى:''فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ''[16]

المبحث الثاني

مآخذ تفسير سورتي النساء والمائدة:

إن أعمال المفسرين أعمال لا يستهان بها وخدمات لا بد وأن تقدر حق التقدير، إلا أن كل جواد له كبوة. ولا يخلو عمل الإنسان من نقص مهما كان. فقد قدم المؤلف في مجال التفسير خدمة جليلة ظهرت من خلال البحث. إلا أنه وُجّهت إلى بعض آرائه وتعبيراته من خلال تفسيره بعض الملاحظات والمؤاخذات من قبل العلماء والباحثين. وهذه المؤاخذات والملاحظات أيضا آراء لهم يمكن أن يُخالَفوا فيها. وليس من الضروري أن يكون الحق معهم فقد يكون المؤلف مصيبا وهم مخطؤون، كما أنه يمكن أن يكون الأمر على العكس. ولا يستبعد كذلك أن تكون وراء بعض هذه الانتقادات والملاحظات أسباب وعوامل مثل النزعات الشخصية أو الخلافات الطائفية لا داعي إلى ذكرها، إلا أننا نذكر من هذه الملاحظات أداء لأمانة علمية. وننبه أنه موضوع مستقل قد كتب فيه كثير من المؤلفين والباحثين. لا نريد أن ندخل فيه فهو ليس مجال بحثنا بل المقصود هنا ذكر بعض الملاحظات الموجهة إلى تعبيراته وأفكاره المذكورة في تفسير هاتين السورتين. ونترك المجال مفتوحا أمام القارئ حتى يتعرف على الاتجاه المعاكس ويصل إلى نتيجة حسب ما يراه صوابا.

الملاحظة الأولى: مفهومه لفكرة الحاكمية:

قبل أن ندخل في عرض الانتقاد يجدر لنا أن نذكر بإيجاز الأوضاع والظروف التي عاش فيها المؤلف. فكما من المعلوم أن انفصال باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧م كان هدفه الأساسي وغايته العظمى إقامة دولة مسلمة تحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكلنا يعرف ما ذا قال _في ذلك_الشاعر محمد إقبال والزعيم السياسي محمد على جناح من أشعار وأفكار وشعارات... وتتابعت حكومات باكستانية منذ الانفصال ولم توف ما وعدت به من إقامة دولة إسلامية. ومن ثم كان المؤلف يركز على الدعوة إلى إقامة الحكم الإسلامي. وساهم كثيرا بكتبه ورسائله[17] لا سيما بتفسيره تفهيم القرآن في مجالات الفكر السياسي والإقتصادي والاجتماعي. وعلى سبيل المثال نراه عند

---

[15] التفسير السياسي للإسلام لأبي الحسن الندوي،(كويت: دارالقلم)،١٥

[16] المائدة:١٢، الهامش رقم:٣٥

[17] انظر مثلا التفهيمات. التجديد وإحياء الدين . المصطلحات الأربعة في القرآن.

تفسير قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[18]

بعد ذكر المبادئ والأصول الأربعة لدستور الدولة الإسلامية يقول: **الأمر الأول**: إنّ إتباع هذه الأصول الأربعة من مقتضيات الإيمان اللازمة. فلا يمكن أن يجتمع دعوى الإيمان وانحراف عن هذه الأحكام في آن واحد.

الأمر الثاني: إنّ الخير كله للمسلمين مكمنه في بناء نظام الحياة على هذا النمط. ولا يمكن أن يثبت الله أقدامهم على الصراط المستقيم إلا بذلك. ولذلك إتباع هذه الأصول أحسن تأويلاً.

ومن الملحوظ أنّ في الآية تنبيه للمسلمين بطريقة لطيفة على الاعتبار بانحطاط اليهود وتخلفهم لأجل الانحراف من الأصول الأساسية للدين. إذ هذا التحذير يتعقّب بعد استطراد أحوال اليهود والتعقيبات على تصرفاتهم تجاه الأخلاق والدين. فأخبر الله بأنّه لا سبيل لأي فئة من الناس إلى سلامة من مفاسد ضّارة وأضرار باهظة_ مثل بني اسرائيل_ لو نبذوا هدي كتاب الله ورسوله وراء ظهورهم، واتبعوا زعمائهم الدينيين وقادتهم السياسيين غير المطيعين لله ولرسوله، وقلدوهم تقليداً أعمى."[19] ونعرض الآن لما عاناه من العلماء في هذا السبيل. فيقول الشيخ محمد يوسف البنوري:"...إن الرجل سياسي داهية يجتهد أن يكون زعيما للمملكة ولكن الزعامة في مثل شعب باكستاني متصلب في الدين لايتم إلا باسم الدين، ولو فرضنا أن نيته صالحة، وهو حاول الإصلاح، ويكون هو مخلصا في نيته وطويته، يمكن أن يكون ذلك ، ولكنه لعدم استفادته من أهل الفضل والتقوى والعلم والدين، ولعدم حصول علوم النبوة على طريقة أهلها. سقط في مهاو من الضلال والزيغ، وأصبحت نهضته، ثم جماعته التي تربت على هذه الأصول والقواعد وسيلة لكل إلحاد وزندقة، ومن الممكن أن ينجو هو نفسه من هذه الموبقات ، ولكن أتباعه المغرمين برسائله غير ممكن أن يخرجوا من هذه المخزيات المرديات، حيث انتهج لهم منهاجا يبلغ بهم إلى الضلال ، وخط لهم خطة توصلهم إلى النار، والعياذ بالله."[20]

وبغض النظر عما قاله صواب أو خطأ لا بد من ملاحظة الأسلوب غير العلمي، ولا يليق — حسب رأي — مثل هذا الأسلوب بشخصيته المحترمة. ويقول الكاتب الكبير أبو الحسن الندوي بعد

---

[18] النساء:٥٩

[19] - راجع سورة النساء الهامش رقم ٨٩،٩٠،٩١،وسورة المائدة الهمش رقم٧٧

[20] - الأستاذ المودودي وشيئ من حياته وأفكاره لمحمد يوسف البنوري،(القادر برنتنك سنتر سنة،١٩٧٦م.)،٣١،٣١

ذكر كلام السيد قطب[21] في تأييد أفكار المؤلف وكلام الأستاذ الهضيبي[22] في نقده: هل الصلة بين العبد والرب هي صلة الحاكم والمحكوم فحسب؟ ونقف هنا وقفة قصيرة ...والشيئ الكثير من كتاباته ، من أن الصلة بين الله والإنسان ، والعبد والرب ، هي في الواقع صلة الحكم والمحكوم، وصلة الرعية والملك ، وأن صفة " السلطة العيا" و"الحاكمية المطلقة" هي الأصل من بين أسماء الله الحسنى وصفاته السامية الكثيرة" ثم يقول بعد ذكر بعض اسماء الله الحسنى وصفاته ومقتضاها:" والذين حصروا صفات الله وحقوقه ، في حق الحاكمية والسلطة العليا وحده ورأوه أصل الحقوق الإلهية، وأول المطالب الربانية، أخاف أن يكون قد صدق عليهم قول الرب وتبارك وتعالى" وما قدروا الله حق قدره."(الأنعام:٩١)[23]

وبجدر لنا أن نعرض كذلك بعض ما أجيب به هذا الانتقاد. فنذكر أولا كلام حمد بن صادق الجمال: نعم المودودي له أهداف سياسية...ولكنها ليست أهدافا شخصية ذاتية، وليست مجرد تطلع للزعامة وإنما هي أهداف دين الإسلام مطبقة على السياسة- ربط المودودي بين المفاهيم الإسلامية وبين السياسة، إنما هو محاربة للمفاهيم الخاطئة التي تسربت لأذهان المسلمين بتأثير سطوة الحكام، والنموذج الغربي أو المستغرب..القائم على فصل الدين عن الدولة...."[24]

ويواصل المناقشة ويقول: الدين بمعنى النظام الشامل في فكر المودودي لا يعني مجرد النظام السياسي... إنما يعني النظام الشامل بكل ما يتضمنه من اعتقاد وعبادة ومعاملة وسياسة واقتصاد... والدولة لدى المودودي ليست غاية في ذاتها وإنما هي وسيلة لإقامة النظام الإلهي الشامل.."[25]

ويذكر أحمد محمد جمال خلاصة قول ابن تيمية الذي استدل به الأستاذ الجليل الندوي: إن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل والمحبة لله...فمعنى (الإله) الذي يأله القلب بكمال الحب، والتعظيم، والإجلال..."[26] ثم يقول : إن ابن تيمية_كما سرد الأستاذ الندوي بعض أقواله عن الألوهية..قد ركز على جانب العبودية لله وحده..العبودية بالحب والإجلال والخضوع..فهل يصح أن نتهم ابن تيمية بأنه جهل أو نسي المعنى المهم الآخر (للعبودية) وهوالخضوع لحاكمية الإله الواحد...أم

---

[21]- انظر للتفصيل معالم في الطريق،(دمشق:طبع وتوزيع دار)،٢١

[22]- انظر للتفصيل دعاة لاقضاة لأستاذ الحسن الهضيبي،أبحاث في العقيدة الإسلامية ومنهج الدعوة إلى الله، (القاهرة:دار الطباعة والنشر الإسلامي،١٩٧٧م).

[23]- التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ المودودي والشهيد قطب لأبي الحسن الندوي،(كويت: دار القلم، وراجع للجواب على ذلك)، ٧٩،٧٨،٧٧

[24]- أبو الأعلى المودودي حياته وفكره العقدي لحمد بن صادق الجمال،٢٨٨

[25]- نفس المرجع

[26]- حوار بين الدعاة الأعلام، المودودي، والندوي، والسيد قطب لأحمد محمد جمال، (لاهور:طبع في مطبعة رين ليمتيد٤- ليك رود)،٣٠

يصح لنا أن نقول : ابن تيمية لم يقرأ قول الله المحكم الصريح البين :(إن الحكم لله)[27] وقوله أيضا (أفحكم الجاهلية يبغون؟)[28]...والجواب على تساؤلنا : هو لا يصح لنا أن نتهم ابن تيمية حين ركز على هذا المعنى...لماذا؟ لأن مؤلفات ابن تيمية الأخرى تفيض بالحديث عن وجوب تحكيم الشريعة الإلهية بين الناس وفتاويه التي بلغت نحوا من أربعين مجلدا تجسد المطالبة بإقرار (حاكمية) لله كإقرار عبادته في الفرد المسلم والجماعة المسلم على سواء."[29]

ويستمر في حديثه ويقول : ومثله الأستاذ المودودي والأستاذ السيد قطب اللذان خالفهما الأستاذ الندوي في تركيزهما على الحاكمية الإسلامية فإن مؤلفاتهما الأخرى الكثيرة الوفيرة تفيض بالحديث عن العقيدة والعبادة والأخلاق_في نظام الإسلام _وبالدعوة إلى إصلاح الفرد وإصلاح الجماعة بالمنهج التربوي الإسلامي الحكيم"[30]. فيتضح مما سبق، كما يبدو لي، أن المؤلف لا يعني بتركيزه على الحاكمية لله اهمال الجوانب الأخرى من صفات الله تعالى وحقوقه، والدين بمعنى النظام الشامل في فكره لا يعني النظام السياسي فحسب. بل يقصد بالنظام الشامل كل ما يتضمنه من اعتقاد وعبادة ومعاملة واقتصاد وسياسة. ويمكن أن يقال بكل الصراحة بناء، على الأقل، على جهوده المرموقة في اقامة دولة الإسلام في باكستان وجهاده مع العلماء الكبار في استصدار دستور إسلامي فيها أن الاتهام بكونه رجلا سياسيا يطلب الزعامة غير سائغ.

الملاحظة الثانية: مفهومه لفكرة العبادة:

من المناسب أن نذكر أوّلا بالإجمال ما هو مفهومه لفكرة العبادة قبل استعراض الملاحظات عليه. فيلخص الأستاذ خليل الحامدي – أحد زملاء الشيخ المودودي البارزين في مجال الدعوة وله عشرات من المؤلفات القيمة في الأردية واللغة العربية– مفهومه : أساس هذه الفكرة عند المودودي هي: "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله"..أي أن العبودية الكاملة لله الواحد الأحد، وليس معنى ذلك أن يقر العبد بعبوديته لله شأنه...ثم يبقى في حياته العملية حرا طليقا كما كان من قبل في حياته الجاهلية..وكذلك ليس المقصود من عبوديته العبد لله أن يعتقد كونه تعالى خالقا للكون، رازقا لمن في الأرض مستحقا للعبادة من جميع خلقه ، من غير أن يكون له سلطان في هذه الحياة الدنيا..ومسائلها

[27] - الأنعام:٥٧

[28] - المائدة: ٥٠

[29] - حوار بين الدعاة الأعلام، المودودي، والندوي، والسيد قطب لأحمد محمد جمال، ٣٠، ٣١

[30] - المرجع السابق، ٣٢

وشؤونها المتعددة المتشعبة...وأيضا ليس من معنى العبودية لله في القسم الديني الذي لا يخرج_ حسب المصطلح الشائع_ عن دائرة العقائد والعبادات والمسائل التي لها علاقة بالحياة الفردية والأحوال الشخصية ..أما الحياة الدنيوية وشؤونها المتشعبة وفروعها المتنوعة..من مسائل العمران والسياسة والاقتصاد والآداب والأخلاق ، فلا سلطان فيها لله الواحد الأحد، ولا رواج لأحكامه في دائرتها ، والعبد حر في بابها يفعل ما يشاء ، ويضع لنفسه من نظم العمران والملك مايريد، أو يختار من النظن الوضعية ما يحبه ويرضاه...وهذا في الواقع مسخ وتشويه لوجه الحقيقي والفكر الديني.."[31] والمؤلف نفسه يبين أحد معاني العبادة خلال تفسير قوله تعالى: إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا-[32]

أي لا أحد يعبد الشيطان بمعنى أن يؤدى الطقوس والمراسم التعبدية أمامه ويحله محل الألوهية. ولكن الصورة التي يجعل فيها واحد الشيطان إلها له، هي أن يسلم لجام نفسه إلى ايدي الشيطانِ كأنه هو إلها له وهذا عبداً له. فلا يعثر على طريق سليم لإتباع في حياته إلا ما قد أراه الشيطان من طريق معوج منحنى.

فاتضح كل الوضوح بما سلف أنه طاعة بغير الوعي وتقليد أعمى أيضا يسمى "العبادة". فمن ينغمس في هذا النوع من الطاعة المطلقة هو في الحقيقة مذنب بعبادة مثل هذا"الإله"[33]. ولمزيد من التفاصيل انظر مبادئ الإسلام للمؤلف ،ص١٢٨ وما بعدها. والمصطلحات الأربعة في القرآن ، باب العبادة.

ونعرض الآن ما أخذ عليه المؤلف في هذا الباب فيقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:" أن المودودي يعترف بأهمية العبادة عند الإنسان حيث يقول : إن تصور العبادة في العقائد الدينية عند الإنسان هو أول وأهم تصور ، والحقيقة أن عقيدة الدين الأساسية هي العبادة، ولذلك نرى جميع الأديان التي عرفناها لا يخلو واحد منها من تصور العبادة".

ويواصل الشيخ حديثه بأن المودودي يعترف بأهمية العبادة ثم لا يلبث أن يخلط العبادة مع غير العبادات بتفسيره الجديد حيث يقول :" يخطئ من يقول: إن العبادة إنما هي محدودة بين المسبحة والسجادة، والمسجد والزاوية....بل إن حياته كلها عبادة فهو عندما يترك الحرام في تجارته ويقنع بالرزق

[31]- الجماعة الإسلامية بباكستان لأستاذ خليل أحمد الحامدي،١٨،١٩

[32]النساء:١١٧

[33]- انظر سورة النساء الهامش رقم ١٢٥

الحلال أليست هذه عبادة؟....فالحق إن الإنسان مهما عمل من أعمال الدين والدنيا اتباعا للشريعة وإطاعة لأمر الله فهو عبادة." ويقول الشيخ زكريا :" ...ولكن هل لاحظتم أنه كيف لبس العبادات مع غير العبادات...وما من شك أن المؤمن إذا راعى حدود الله في معاملاته وابتغى مرضاته ينال عليها الأجر كالعبادات، ولأجل ذلك عبر عنها أحيانا بالعبادة مجازا، ولكن هل كون هذه الأعمال بحيث ينال صاحبها عليها أجرا، يدخلها في مفهوم العبادة؟"[34]

ثم يستمر في كلامه، وهذا نقلا عن كتاب " أبوالأعلى المودودي حياته وفكره العقدي لحمد بن صادق الجمال، ويقول : إن أخطر شيئ في مؤلفات الأستاذ المودودي ، والسم الذي يسقيه جماعته ممزوجا بالسكر هو الحط من مكانة العبادات وأن مجددكم (المودودي) يقول إنها غير مقصودة وهي وسائل للعبادة الكبرى، وليست هي عبادة حقيقية."[35]

وينتقد الشيخ محمد يوسف البنوري قائلاً: هذه الفكرة من الشيخ المودودي تدل على أن العبادات ليست من مقاصد الدين الإسلامي ، وإنما الغرض منها هو حصول النظام الشرعي أي الخلافة الإسلامية وشرعت هذه العبادات للحصول على السلطة والاقتدار، والمقصود من الإسلام إقامة هذا النظام، وهذا قلب للحقائق الإسلامية والشرائع الإلهية ، وخروج عن الصراط المستقيم..فالسلطة مطلوبة لإقامة الدين وأداء العبادات ، فالعبادة مقصودة من أكبر مقاصد الدين والخلافة والحكومة وسيلة للحصول على هذا المقصود والله تعالى يقول : الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة...(سورة الحج الآية:٤١) فجعل الله هذه العبادات غاية للحكومة والسلطة."[36].

وبجدر لنا أن نذكر كذلك مما أجيب على مثل هذه الانتقادات. فيجعل حمد بن صادق الجمال[37] لمناقشة هذه الآراء بعد سردها مقدمتين أولهما : المودودي مفكر وداعية وليس فقيها ولأجل ذلك لا يلتزم بالأدوات الفنية للفقه. وثانيهما : المودودي صاحب نظرة شاملة ترتبط فيها الفروع بالأصول ، وقطع الفروع عن أصولها يؤدي إلى نتيجة خاطئة في فهمها ..ويزداد الخطأ إذا كان القطع مقصودا. ويقول صادق الجمال : الناقد يغفل جهود المودودي في إيضاح المصطلحات الأربعة في القرآن (الإله، الرب، العبادة ، الدين) ويركز على ماورد بشأن العبادة..وربط هذا الفرع بأصله يوضح أن

[34]- الأستاذ المودودي وأهم المقالات عن كتاباته ، لمجموعة من العلماء ومنهم الشيخ زكريا الكاندهلوي،(كراتشي:دارالإشاعت اردو بازار)،٢١٣

[35]- أبوالأعلى المودودي حياته وفكره العقدي لحمد بن صادق الجمال،(جدة: دارالمدني، الطبعة الأولى،١٩٨٦م)،٢٩٩

[36]-الأستاذ المودودي وشيئ من حياته وأفكاره لمحمد يوسف البنوري،٢٧،٢٨

[37]- أبوالأعلى المودودي حياته وفكره العقدي لحمد بن صادق الجمال،٣٠٥

العبادة لدى المودودي لها معنيان: (أ) معنى واسع يعني كامل الخضوع من العبد لله.... (ب) معنى خاص هومعنى الفرائض للأركان والشروط المخصوصة.

ويواصل صادق الجمال : والمودودي عندما جعل كل تصرفات المسلم عبادة كان يعني المعنى العام ...وهوبإعتباره مفكرا لا يلزم بإتباع التقسيم الفقهي.[38]

ثم ذكر قول الإمام ابن تيمية عن معنى العبادة الشامل ولخص بأن المودودي لا يقلل من أهمية العبادة ، وإنما يرد التطرف الحاصل بين المسلمين في عصره..تطرف العباد الذين لا يدرون من أمر دنياهم شيئا..وتطرف الدنيويون الذين لا يهتمون بأمر دينهم.

وبعد ذلك يردّ نفس المؤلف الاتجاه الثاني للنقد وهو جعل المودودي العبادات ليست من مقاصد الدين الإسلامي..ولكن مجرد وسيلة لغاية هي حصول النظام الشرعي. ويقول :" المودودي لا يقصد بالنظام الشرعي...مجرد الخلافة أو النظام السياسي، وإنما يقصد النظام الإسلامي الكامل الشامل، والذي يقوم على الخضوع الكامل لله، ويشمل فيها النظام السياسي كجزء من أجزائه".[39]

ثم يستمر في حديثه ملخصا كلامه بعد ذكر كلام السيد قطب والشيخ المودودي في بيان غاية الدين الحقيقية: ومما سبق يتضح نظرة المودودي الشمولية...بإرجاع الفرع لأصله... وذلك بإرجاع العبادة إلى الدين الإسلامي ككل..فنجد أنه لم يخرج من مقاصد الدين كما ادعى الناقد..وكونها وسيلة أو غاية ، فإن تحديد ما هو غاية وما هو وسيلة مسألة نسبية ، لا يمكن فهمهمإلا في علاقة أمرين محددين أحدهما بالآخر ،فالأمر الذي يعتبر غاية بالنسبة لأمر معين..يمكن أن يعتبر وسيلة بالنسبة لأمر آخر..."[40]

الملاحظة الثالثة: تكرار نزول قوله تعالى الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[41]

كما هو معلوم من منهج المؤلف في بيان المناسبات بين الآيات والسور، ومراعاة السياق وتعيين زمن نزول الآية أو السورة من خلال بيانه سياق الآيات وسلسلة الكلام.

---

[38]- المرجع السابق.
[39]- المرجع السابق،٣١٢
[40]- المرجع السابق،٣١٦
[41]المائدة:٣

فمثلا يقول في تعيين زمن نزول سورة المائدة بعد الإشارة إلى الروايات أنها نزلت في أواخر سنة ٦ من الهجرة أو في أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد صلح الحديبية: فهذا هو سياق الحديث الذي افتتحت به السّورة الكريمة. ثمّ بما نوقش نفس الموضوع في الركوع[42] ١٣يدلّ على استمرار هذه السّلسلة للكلام عن موضوع واحد من الرّكوع الأوّل إلى الرّكوع الرّابعة عشر[43]. وأمّا المواضيع الأخرى المتناولة في هذه السّورة أيضاً تبدو بأنّها كانت قد نزلت أثناء نفس الفترة. وفي الاستمرارية المتواصلة البيان إشارة إلى اشتمال السّورة على خطبة واحدة نزلت في نفس الوقت وفي شكل متكامل. وهذا لا يمكن أن يستثنى جملة. بل من المحتمل أيضاً، على أيّ حال، أنّ بعض آياتها ربما نزلت نجماً نجماً في الفترة غير ما ذُكرت. ثمّ مزجت في المواضع المختلفة في هذه السّورة انسجاماً بسياق الكلام بطريقة لطيفة. حيث لم يبقى هناك أيّ مؤشر الّذي يمكن القياس به على أنّ السّورة مجموعة من اثنين أو ثلاثة خطب[44].

فقد ذكر المؤلف زمن نزول قوله تعالى الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[45] طبقًا للروايات المستندة أنها نزلت بمناسبة حجة الوداع سنة١٠هـ. ثم أظهر رأيه على سبيل الإمكان قائلا: أنّ هذه الآية – حسب ظني والعلم عند الله– كانت قد نزلت في هذا السّياق(وبمعنى آخر: نزلت تعليقًا على الظروف التي كانت تسود وقت معاهدة الحديبية). واستند في ذلك إلى سياق الكلام المرتبط أشدّ الارتباط، حيث لا يُرى من الممكن أن يُحسب بأن هذا الكلام قد نزل دون هاتين الجملتين ابتداءً، ثمّ أُدرِجت هاتان الجملتان في هذا السياق حينما نزلت بعد بضع سنوات.

فاستظهار رأيه في تعدد سبب نزولها استناد إلى سياق الكلام فحسب دون الاستشهاد إلى دليل نقلي. ومن المعلوم أن تعدد النزول لا يثبت إلا بدليل مأثور صحيح. كما قال السيوطي: نقلا عن الواحدي: "لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها". ونقل قول محمد بن سيرين: "سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال اتق الله وقل سدادا ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله القرآن".[46]

---

[42]- الآية رقم٥٦

[43]- الآيات: ١-١٠٨

[44]- مقدمة سورة المائدة.

[45]المائدة:٣

[46]- الإتقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي،١: ٩٢

ومن الملحوظ أيضاً أن المؤلف لم يدع ادعاء قطعيا. بل استظهر ذلك حسب ظنه وفوض العلم إلى الله. وهذا يدل من ناحية أخرى على شدة حيطته في إظهار رأيه.

الملاحظة الرابعة : كثرة نقله من كتب أهل الكتاب في تفسيره.

ومما وجه إليه من انتقادات وملاحظات كثرة نقله من كتب أهل الكتاب واعتماده عليها خلال تفسير الآيات القرآنية. ونسرد على سبيل المثال كلامه عند تفسير قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ[47] سُجّلت خطبة موسى عليه السلام في العهد القديم (سفر الأحبار:فصل٢٦ وسفر تثنية: فصل٢٨). وفيها تأكيد لبني إسرائيل بالتفصيل الرائع أنهم إذا امتثلوا أوامر الله حقّ الامتثال سيمنحهم من رحمته وبركاته. وإن عصوا متخذا كتاب الله وراء ظهورهم فينزل عليهم من المآسي والدمار والفجائع والمكاره. وهذه الخطبة من أفضل تفاسير هذه الفقرة القرآنية المختصرة . وانظر لمزيد من البيان سورة النساء الهامش رقم٢٠٠، وسورة المائدة الهامش رقم١٠١، ١٠٢. ولكن يعد بعض الباحثين الآخرين أسلوبه هذا من ميزاته فمثلا أ.د أليف الدين الترابي يقول: نرى الشيخ المودودي خلال تفسيره للقرآن الكريم يرجع إلى كتب أهل الكتاب ولاسيما إلى التوراة والإنجيل والتلمود، لأجل تحقيق عدة أهداف، يرى أن الاستعانة بكتب أهل الكتاب تفيد فيها، من أهم هذه الأهداف:

أولاً: البيان المفصل لما جاء في القرآن الكريم مجملاً . ويهتم فيها بالأمور الآتية :

أولاً: ألا تكون هذه التفاصيل مخالفة بما جاء به القرآن الكريم.

ثانياً: أن تكون خالية من الاتهامات والأكاذيب التي يرمون بها أنبياءهم.

ثالثاً: أن تكون برهاناً قاطعاً على صدق ما ورد في القرآن، وتكون حجة قوية على من يشك فيه أو ينكر عنه.

ثانياً: الاستشهاد على تحريف الكتب السابقة.[48]

---

[47] المائدة:٦٦

[48] - الإمام أبو الأعلى المودودي و منهجه في تفسير القرآن الكريم، بحث للبروفيسور أليف الدين ترابي، جامعة أم القرى، (مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية: ط: بدون. (وقد حصلت على نسخة من مؤلفه بنفسه ليس فيها تاريخها)

الملاحظة الخامسة: رفع عيسى عليه السلام جسما

مسألة رفع عيسى عليه السلام بجسمه من المسائل التي خالف فيها بعض العلماء تعبير المؤلف كما يقول المفتي محمد يوسف : إن هذه المسألة كذلك من المسائل المختلف فيها التي حاول بعض العلماء أن يطعنوا ويتهموا بها الأستاذ المودودي".[49]

فاعترضوا على تعبير المؤلف عند تفسير ه لقوله تعالى بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[50]

والعبارة هي : "الأمر الذي صرّح القرآن به بجزم وصراحة هو أنّ اليهود لم ينجحوا في قتل المسيح عليه السلام، بل رفعه الله إليه. وأما السؤال عن كيفية الرفع فلم يتناوله القرآن الكريم ولم يصرح هل رفعه إلى السموات جسدياً وروحياً أم توفي في الأرض و رفع روحه فقط؟ ولذلك لا نستطيع أن نجزم بإثبات الأول ولا بنفي الثاني حتماً"[51].

فقيل –باختلاف يسير في الألفاظ– إنّ تعبير المؤلف يشير إلى إنكار رفع عيسى عليه السلام بجسمه. مع أنه قد اتفقت الأمة على رفعه عليه السلام جسما. وثم لو نقبل أيضا أنه لم ينكر، لكن تدل عبارته هذه، على الأقل، على عدم تصريحه في القرآن. فإن هذا الجزء من المسألة أي ثبوت رفعه عليه السلام بجسمه بتصريح القرآن أيضا من القطعيات المتواترات كما ثبت رفعه جسما بالقطع . ولذلك لا يجوز إنكار أحد منهما. كما لا يجوز ترك أيّ جزء منهما مجملا بموجب القرآن.[52]

نعرض الآن جواب مفتى محمد يوسف –أحد العلماء البارزين لمدرسة فكر الديوبندي– على هذا الاعتراض ملخّصاً: إن ألفاظ القرآن الكريم ليست بصريحة في رفعه إلى السماء. وليس معناه أنها لا تحتمل هذا المعنى كذلك. بل المراد بذلك أنه لا يمكن أن يقال بالقطع مجرد بناء على هذه الألفاظ أن القرآن يصرح بأن الله قد رفع عيسى ابن مريم حيا إلى السماء بجسده. ولكن مع ذلك، تحتمل الألفاظ

[49]- الدراسة العلمية للاعتراضات على الشيخ المودودي لمفتى محمد يوسف،(اسلامك بيلكيشنز الطبعة السابعة،٢٠٠٤م)،١: ١٦٨

[50] النساء:١٥٨

[51]- راجع سورة النساء الهامش رقم١٩٥

[52]- الدراسة العلمية للاعتراضات على الشيخ المودودي لمفتى محمد يوسف،١: ١٦٩،١٧٠

هذا المعنى ويمكن أن يستدل بسياق الكلام أيضا. وإضافة إلى ذلك، عندما نضيف الدلائل الخارجية إليها مثل الأحاديث المتواترة وإجماع الأمة وغير ذلك فيصبح رفعه بالجسم قطعي الثبوت.[53]

ثم يقول نفس المؤلف: إن الرفع المذكور في الآية(بل رفعه الله إليه) لا يمكن أن يراد به غير الرفع الجسماني قطعاً. إلا أنه غير مصرح في ألفاظ القرآن."[54]

والشيخ المودودي قد ذكر الدلائل الأربعة من القرآن نفسه التي تدل على الرفع الجسماني:

الدليل الأول: كان المسيحيون يعتقدون برفع المسيح عليه السلام روحاً وجسماً مسبقاً. فبناءً على نفس العقيدة آمن طائفة كبيرة منهم بألوهية المسيح. ولكن مع ذلك إن القرآن ليس فقط لم يفند تلك الفكرة تفنيداً بل قد استخدم تعبير الرفع (Ascension) نفسه الذي كان المسيحيون يستخدمون لهذه الحادثة. فهذا لا يتصور بأن القرآن الذي يصف نفسه كـ' كتاب مبين ' يستخدم تعبيراً الذي قد تعزّز فكرةً خاطئةً وهو لها منكر.

الدليل الثاني: إن كان هذا الرفع رفعاً معروفاً لدى الناس، كما يُقال عن الذي تُوفي أن الله تعالى رفع فلان إليه، لكانت الفقرة "وكان الله عزيزاً حكيماً" التي تليها جملةً خارجةً عن السياق. فإن مثل هذا البيان وثيق الصلة ضمن سياق الذي دل على الواقعة حدثت فوق العادة بقوة الله الهائلة وحكمته البالغة.

الدليل الثالث: لو كان رفعه عليه السلام رفعاً عادياً مثلما يُرفع كل إنسان بموته الطبيعي، أو كان المراد برفعه رفع الدرجات محضاً، كما ذكر الله تعالى عن رفع درجات إدريس عليه السلام في سورة مريم"ورفعناه مكاناً عليّاً"[55] لما كان أسلوب القرآن هكذا – كما نراه – لبيان مثل هذا المضمون. بل لتأدية هذا المفهوم بشكل أفضل كان يمكن أن يقال: وماقتلوه يقينا. بل نجاه الله من الصلب. وتوفاه بموت طبيعي. وقد أراد اليهود إهانته ولكن رفعه مكاناً علياً.

---

[53]- المرجع السابق،١٩٠،١٩١

[54]- المرجع السابق،١٩٢

[55]- مريم:٥٧

الدليل الرابع: وأما دليل وحيد من القرآن الذي يمكن أن يُقدّم يخالف هذه وجهة نظر هو قوله تعالى" إني متوفيك". فكما أشرنا إليه عند تفسير الآية(سورة آل عمران الهامش رقم٥١)[56] أن كلمة "متوفيك" ليست بصريحة في معنى الموت الطبيعي بل استخدامها في اللغة لكلي المعنيين، قبض الروح وقبض الروح والجسد . ولذلك إن هذا الدليل غير كافي لإنكار الحجج والقرائن قدّمناها آنفاً.

والبعض من الذين يصرّون على الموت الطبيعي للسيد المسيح يستدلون بأنه ليس هناك مثال آخر لاستعمال الكلمة"التوفي" في معنى قبض الروح والجسد. ولكن هذه الحجّة ليست ممكن الدفاع عنها. إذ رفع السيد المسيح حدث فريد في التأريخ الإنساني ولأجل ذلك البحث عن مثال آخر لاستعمال هذا التعبير في نفس السياق بلا معنى وغير معقول. فإن الأمر المهتمّ بالشّأن في ذلك هو إمكانية صحة استعمال هذه الكلمة في اللغة العربية دون البحث عن الأمثلة أكثر من واحدة. فإذا كان الجواب بنعم، وجب أن نقول بأنّ القرآن الكريم بدلاً من أن ينفي عقيدة رفع الجسد صراحةً قد أضاف قرينة إلى القرائن تدعم اعتقاداً في رفع السيد المسيح جسدياً باختيار هذه الكلمة المعيّنة. وإلا فليس هناك وجه آخر لاستخدام القرآن لفظ "التوفي" محتمل المعنيين وعدم استخدامه لفظاً صريحاً وهو "الموت"، على الرغم من أن رفع المسيح عليه السلام جسدياً كانت عقيدة متفشية بين المسيحيين. وهذه هي العقيدة التي كان حافزاً أساسياً في إيجاد الاعتقاد الباطل لألوهية المسيح."

ثم يقول المؤلف : وكذلك تؤيد الروايات المتعددة الصريحة هذه العقيدة في مجيئه عليه السلام إلى الدنيا قبل يوم القيامة وقتاله مع الدجال. (وقد نقلنا تلك الروايات في ملحق تفسير سورة الأحزاب) ويثبت بذلك مجيئه الثاني قطعيا . فالآن لكل واحد أن يحكم بما يراه صواباً مما ذكرنا أي عودة السيد المسيح إلى هذا العالم بعد موته أقرب إلى الصواب أو كون وجوده حيّاً في مكان ما في كون الله، وعوده إلى هذا العالم في وقت ما بمرور الزمن؟"[57]

[56]- آل عمران:٥٥

[57]- سورة النساء الهامش رقم 195.

الخلاصة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليما كثيرا.

فقد أتممت هذا البحث المتواضع بتوفيق الله تعالى. وأسأل الله سبحانه أن يتقبله قبولا حسنا، وأن يجعله نافعا مفيدا، وخيرا وبركة لي وللإسلام والمسلمين، وأن يعفو عما حصل فيه من تقصير وخطأ، إنه جواد كريم.

وفي خاتمة هذالبحث أود أن أسجل هنا ما توصلت إليه من نتائج هامة خلال البحث وهي كالآتي:

1: إن العصر الذي ولد فيه الشيخ المودودي كان عصر التحديات والتيارات حيث وقع العالم الإسلامي في الانحطاط والاضمحلال فكرياً وعملياً، وتمكن الاستعمار الأوروبي الغاشم من السيطرة عليه سياسياً وحضارياً، ونحى الإسلام من المنصب ليحل محله الحضارة الجاهلية الغربية.

2: وكان من متطلبات ذلك العصر ومقتضياته أن يقوم العلماء المسلمون والمفكرون بإحياء التصور الصحيح للإسلام وللقضاء على العبودية الفكرية للحضارة الغربية وإعادة ثقة المسلمين في صلاحية الإسلام لقيادة البشرية.

3: جعل المؤلف كتاب الله الخالد محور دعوته وأساس فكره . فأحس حاجة إلى تفسير القرآن بأسلوب سهل خلاب.

4: ويمتاز تفسيره " تفهيم القرآن " بعدة مزايا. ونسرد بعضا منها على سبيل المثال :

(أ) مقدمة تفسيره تشمل المبادئ الأساسية لدراسة القرآن وفهمه فهماً صحيحاً كما يرد فيها المؤلف على الأسئلة التي يواجهها القارئ خلال تلاوته للقرآن الكريم إذا لم يكن له إمعان النظر في الكتاب والسنة.

(ب) قبل بداية تفسيره لسورة يأتي بمقدمة تفصيلية يبين فيها سبب تسمية السورة وزمن نزولها مع ذكر المرحلة التي كانت فيها الحركة الإسلامية آنذاك، كما يأتي فيها بموجز مباحث السورة مع العناية الخاصة ببيان التوجيهات الإلهية لعمل الدعوة الإسلامية أو لتنظيم الحياة الفردية والاجتماعية على الأسس الإسلامية.

(ت) يعتني بأسلوب أدبي سهل ميسور خلال تفسيره للآيات القرآنية حيث يمكن أن يستفيد عامة الناس من هدي القرآن الكريم .

(ث) يهتم بالخرائط خلال تفسيره لإيضاح حادث الذي ورد ذكره في القرآن الكريم

(ج) الاهتمام بدحض الشبهات المثارة حول التعليمات الإسلامية الثابتة وإيراد الأسئلة وأجوبتها.

(ح) عدم الخوض في المباحث الجانبية.

(خ) إبراز موقف الإسلام من النظريات الغربية والفلسفات الجاهلية المعاصرة خلال تفسيره.

(د) عدم التعصب المذهبي.

5: وكذلك وُجّهت إلى بعض آرائه وتعبيراته من خلال تفسيره بعض الملاحظات والمؤاخذات من قبل العلماء والباحثين. مثل مفهومه لفكرة الحاكمية، مفهومه لفكرة العبادة، و كثرة نقله من كتب أهل الكتاب في تفسيره، وغير ذلك.

وفي الختام أسأل المولى عز وجل أن يجزي المؤلف رحمه الله عنا خير جزاء وأن يغفر له زلاته، وأن ينفع بعمله المسلمين، وأن يتقبل منا جميعاً صالح الأعمال ويعفو عن سيئها، وأن يغفر لي ولوالدي ولأساتذتي وللمسلمين والمسلمات. آمين